# القول بالصرفة في إعجاز القرآن الكريم وعلاقته بالعقيدة

دكتور/ عثمان بن مسفر الزهراني

أستاذ العقيدة وعضو هيئة التدريس بجامعة أم القرى

**المقدمة:**

الحمد لله الذي أنزل على خاتَمِ الرسل والأنبياء أكملَ كتاب، تبصرةً لأولي الألباب، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له رب الأرباب، إليه الرجعى والمآب.

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله النبي الأواب، الذي آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله والأصحاب .

أما بعد:

فلقد حظي القرآن الكريم باهتمام العلماء والباحثين والمؤلفين ، واعتنوا بكل الفنون المتعلقة به ، من تفسير وتجويد وبيان لوجوه اعجازه وبلاغة ألفاظه ونظمه وعظمة معانيه وفضائله ، وكان – وما يزال – له مكان الصدارة في الاهتمام والعناية بين شتى العلوم والفنون ، ولا غرو فهو الآية الباقية، والمعجزة الخالدة.

بل هو أعظم معجزات رسولنا صلى الله عليه وسلم، والعلم بكونه معجزا علم ضروري، ووجوه إعجازه لا تحصى. [1]

وظل هذا أمرا مستقرا عند المسلمين ، إلى أن برز في نهاية القرن الثاني الهجري تقريبا من خالف ذلك، فذهب إلى أن القرآن ليس معجزا في نظمه ، وإنما عجز الخلق عن الاتيان بمثله لأن الله صرفهم عن معارضته، ومن هنا نشأ القول بـــ " الصَّرْفة ".

ورب ضارة نافعه ، فقد كان هذا سببا لمزيد عناية من العلماء بدراسة وبيان إعجاز القران الكريم في بيانه ونظمه وبلاغته ، ردا على تلك المقولة الباطلة الغريبة الدخيلة على المسلمين ، وتناول عدد من العلماء المتقدمين الحديث عن الصرفة وعن نشأتها وبطلانها وخطرها ... الخ

[1] انظر "معترك الأقران" للسيوطي(٣/١).

ولعلاقة هذه القضية بكتاب ربنا العظيم ، ومعجزة رسولنا الكريم ، فقد أردت بهذا البحث" القول بالصرفة في إعجاز القرآن وعلاقته بالعقيدة " أن أسهم بمزيد بيان لقضية الصرفة، وإيضاح معناها، وكيف نشأت، والقائلين بها، واستدلالاتهم على ذلك، وبيان بطلان تلك الاستدلالات ، وأن القرآن معجز بذاته ونظمه ، وأن ذلك وجه من وجوه إعجازه وعظمته وسموه .

**المؤلفات والدراسات السابقة :**

ليس للمتقدمين المؤيدين للصرفة والمعارضين لها تآليف مستقلة عن الصرفة إلا ماندر ، فيما وقفت عليه ؛ وإنما وردت أقوالهم إما نقلا عنهم من علماء آخرين كما هو الحال مع النظام ، أو في مؤلفات بعضهم في مجالات التفسير والعقيدة وإعجاز القرآن وغيرها .

وفيما يلي أهم ماوقفت عليه من مؤلفات في هذه القضية :

**أولا: كتب المؤيدين للصرفة:**

١ – "الموضح عن جهة إعجاز القرآن – الصرفة": للشريف المرتضى علي بن حسين الموسوي. طبع بتحقيق محمد رضا الأنصاري القمي بمؤسسة الطبع والنشر التابعة للآستانة الرضوية سنة ١٤٢٤هـ. وعدد صفحاته ٣٤٥ صفحة، تكلم فيه صاحبه عن بيان مذهب الصرفة، وذكر أدلة – بزعمه – على أن نظم القرآن ليس بمعجز، وأن الله صرف العرب عن المعارضة، وذكر مذهب جماعة من المعتزلة في ذلك، وذكر المذاهب في وجوه إعجاز القرآن، وفصلا في بيان ما يلزم مخالفي الصرفة، ونقل كثيرا من كلام القاضي عبد الجبار من كتابه المغني، وفصلا في الدلالة على وقوع التحدي بالقرآن، وفصلا في أن معارضة القرآن لم تقع لتعذرها، وفصلا في أن تعذر المعارضة كان مخالفا للعادة.

٢ – الصرفة لابن سنان الخفاجي ، وهو مفقود ، وذكره ونسبه له الصفدي في فوات الوفيات [١].

**ثانيا: كتب المبطلين للصرفة:**

١ – القول بالصرفة في إعجاز القرآن – عرض ونقد – للدكتور عبد الرحمن بن معاضة الشهري. طبع بدار ابن الجوزي، الطبعة الأولى سنة ١٤٣٢هـ، وعدد

[١] فوات الوفيات ٢/ ٢٢٢

صفحاته ١١٨ صفحة، تكلم فيه عن تعريف الصرفة والمؤلفات فيها، ونشأة القول بالصرفة، والقائلين بالصرفة وأدلتهم، وأبرز المعارضين للصرفة وأدلتهم، وخلاصات واستنتاجات.

٣ – القول بالصرفة في إعجاز القرآن الكريم للدكتور إبراهيم بن منصور التركي. وهو بحث مكون من أربعين ورقة، تكلم فيه عن تعريف الصرفة ومصدرها، والقائلين بها، وأبرز العلماء الذين رفضوا فكرة الصرفة، وسمات ونتائج فكرة الصرفة.

٤ – الصرفة للدكتور محسن الخالدي ، بحث نشرته مجلة الجامعة الإسلامية – فلسطين ، ضمن سلسلة الدراسات الشرعية (المجلد الثاني عشر – العدد الثاني ، وهو بدأه بمقدمة بين فيها أهمية الموضوع، ومشكلة البحث، ودوافع الكتابة في الموضوع، ثم قسمه إلى ثلاثة مباحث وخاتمة، المبحث الأول تكلم فيه معنى الصرفة وبيان نشأتها وبواعث القول بها، والمبحث الثاني تكلم فيه عن القائلين بالصرفة، والمبحث الثالث تكلم فيه عن نقض القول الصرفة، والخاتمة تكلم فيها عن أهم نتائج البحث التي توصل إليها.

٥ – الصرفة دلالتها لدى القائلين بها وردود المعارضين لها لسامي عطا ، بحث منشور على شبكة المعلومات من ٥٢ صفحة، بدأه بملخص ذكر فيه مطالب بحثه، ثم تكلم عن مفهوم الصرفة، والقائلين بها، وأدلتهم، والمعارضين لها وردودهم.

٦ – الصرفة نشأتها بين مؤيد ومعارض لمحمد فقهاء ، كتاب في ١١٤ ورقة، قدم بمقدمة تكلم فيها عن الدراسات السابقة، وأسباب اختيار الموضوع، وأهداف البحث، ثم تكلم في مبحث عن تعريف الصرفة، وفي مبحث نشأتها، والقائلين بها وأدلتهم، والمعارضين لها وأدلتهم، ثم خاتمة ذكر فيها أهم النتائج التي توصل إليها.

**اختلاف البحث عن الدراسات السابقة :**

١ – أردت من بحثي هذا التركيز على الفكرة وبيان بطلانها دون الاستطراد في المباحث المتعلقة بها كالتعريف بالقائلين بها، وتتبع من قال بها ومدى ثبوت ذلك عنهم من عدمه ... إلخ. فالهدف هو مناقشة الفكرة نفسها وابطالها.

٢– بيان أثرها الاعتقادي، حيث إن القول بالصرفة لا يتفق مع اعتقادنا أن القرآن معجز في ذاته .

٣ – جمعت أكثر من خمسة عشر وجها في ابطال القول بالصرفة وبيان تهافتها .

**أسباب اختيار الموضوع :**

لتعلق هذا الموضوع بالقرآن الكريم ، كتاب ربنا العظيم ، ومعجزة رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم.

ولما رأيت من أهمية جمع وترتيب ما تفرق من الحديث عن الصرفة ووجوه بطلانها .

وإيضاح أثر هذا القول على عقيدة المسلم ، وأن هذا القول ليس رأيا مذهبيا لطائفة ، بمعنى أنه لم تتفق على القول به طائفة معينة ، بل هو قول لأفراد من طوائف مختلفة ، وإن كان لمعتقدات المعتزلة أثر واضح في قول من قال منهم بالصرفه .

منهجي في البحث

قمت بعزو الآيات القرآنية إلى سورها وجعلتها بين قوسين ( ).

قمت بتخريج الأحاديث النبوية مع ذكر الحكم عليها لأهل العلم ما أمكن ، وجعلتها بين قوسين صغيرين " " .

عزوت الآثار إلى مصادرها .

اكتفيت بذكر معلومات المصدر في فهرس المصادر.

عرفت ببعض الأعلام وخاصة الذين لهم شهرة في القول بالصرفة او الرد عليها .

ختمت البحث بفهرسين ؛ فهرس لمراجع البحث، وآخر للموضوعات.

وقد جاء البحث في مقدمة، وخمسة مباحث، وخاتمة على ما يأتي:

أما المقدمة: فقد تقدمت، وذكرت فيها: أهمية الموضوع، والدراسات السابقة، وأسباب اختيار البحث، ومنهجي في البحث.

وأما المباحث فكما يلي:

المبحث الأول: مفهوم الصرفة.

المبحث الثاني: نشأة القول بالصرفة وأسباب ظهوره.

المبحث الثالث: القائلون بالصرفة وأدلتهم.

المبحث الرابع: وجوه بطلان الصرفة وإثبات إعجاز القرآن بذاته.

المبحث الخامس: القول بالصرفة وعلاقته بالعقيدة.

الخاتمة: وفيها بينت أهم النتائج التي توصلت اليها في هذا البحث .

وأخيرا فما كان في هذا البحث من صواب فمن الله سبحانه، وما كان من خطأ وقصور فمني ومن الشيطان، والله ورسوله منه بريئان، والله المستعان، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

**المبحث الأول: مَفْهُومُ الصَّرْفَة**

**الصَّرْفَةُ وَالصَّرْفُ فِي اللُّغَة:**

قال ابن منظور: " الصَّرْفُ رَدُّ الشيء عن وجهه، صَرَفَه يَصْرِفُه صَرْفاً فانْصَرَفَ، وصارَفَ نفْسَه عن الشيء: صَرفَها عنه، وقوله تعالى: { ثُمَّ انْصَرَفُوا }[1] أي رَجَعوا عن المكان الذي استمعُوا فيه، وقيل انْصَرَفُوا عن العمل بشيء مما سمعوا.

{ صَرَفَ اللّه قُلُوبَهُم }[2] أَي: أَضلّهُم اللّه مُجازاةً على فعلهم. وصَرَفْتُ الرجل عني فانْصَرَفَ ... وقوله: { فما تَسْتَطِيعُون صَرْفاً ولا نَصْرًا }[3] أَي: ما يستطيعون أَن يَصْرِفُوا عن أَنفسهم العَذابَ... والصَّرْفُ أَن تَصْرِفَ إنساناً عن وجْهٍ يريده إلى مَصْرِفٍ غير ذلك. وصَرَّفَ الشيءَ أَعْمله في غير وجه، كأَنه يَصرِفُه عن وجه إلى وجه ".[4]

وقال الخليل: " { وتَصْرِيفِ الرِّياحِ }[5] : تَصَرُّفُها من وَجْهٍ الى وَجهٍ، وحالٍ الى حال، وكذلك تصريف الخُيُول والسُّيُول والأمُور".[6]

وقال الجوهري: " صَرَفْتُ الرجل عني فانْصَرَفَ. وصَرَفْتُ الصبيان: قَلَبْتهم ".[7]

وقال الفيروز آبادي: " { فما تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً ولا نَصْرًا }[8] أي: ما يَسْتَطِيعُونَ أن يَصْرِفوا عن أَنْفُسِهم العَذابَ ... واسْتَصْرَفْتُ اللّهَ المَكارِهَ: سألْتُه صَرْفَها عَنِّي. وانْصَرَفَ: انكَفّ ".[9]

---

[1] (التوبة: ١٢٧).

[2] (التوبة: ١٢٧).

[3] (الفرقان: ١٩)

[4] "لسان العرب" (مادة صرف)١٨٩/٩

[5] (البقرة: ١٦٤).

[6] "العين" (ف.ر.ص) ١٠٩/٧

[7] "الصحاح" (باب الفاء. صرف) (١٣٨٦/٤).

[8](الفرقان: ١٩).

[9] "القاموس المحيط" (باب الفاء. فصل الصاد) (٨٢٧).

**الصَّرفة في الاصطلاح:**

**اختلف القائلون بالصرفة في بيان كيفيتها على أوجه ثلاثة:** [1]

**الأول:** أن الله تعالى صرف دواعي الخلق وهمهم عن القيام بمعارضة القرآن الكريم ، فعدم معارضتهم لم تكن لعدم قدرتهم، بل إن المقتضي فيهم كان تاما، غير أن الدواعي والهمم صارت مصروفة عن الالتفات لهذا الأمر، ولولا ذلك لأتوا بمثله. وهو أحد القولين التي نسبت للنَّظَّام[2] ومن وافقه من المعتزلة والمتكلمين.

**الثاني:** توفر الدواعي والهمم والعلوم ولكن لم يمنعهم إلا إلجاؤه تعالى لهم بأن أحدث فيهم عجزا ، فتقهقروا في حلبة المعارضة لغلبة القوة الإلهية على قواهم. وهو وقد نسب هذا القول أيضا للنظام[3] وهو قول لجماعة منهم الراغب الأصفهاني.

**الثالث:** أن الله تعالى صرفهم عن المعارضة بسلبهم العلوم التي يحتاج إليها في المعارضة، ولولا هذا السلب لأتوا بمثله. وهو قول المرتضى من الشيعة ومن وافقه من المتكلمين.

**وإليك بعض النقولات التي تشمل المعاني الثلاثة :**

قال أبو الحسن الأشعري : " وقال النظام: الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب، فأمّا التأليف والنّظم، فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أنّ الله منعهم بمنع وعجز أَحدثهما فيهم ".[4]

وقال الخطابي [5]: " وذهب قوم إلى أنّ العلة في إعجازه الصرفة أي صرف الهمم عن المعارضة، وإن كانت مقدورا عليها وغير معجوز عنها، إلاّ أنّ العائق من حيث كان أمرا خارجا عن مجاري العادات، صار كسائر المعجزات فقالوا: ولو كان الله عزّ وجلّ بعث نبيا في زمان النبوات، وجعل معجزته في تحريك يده أو مدّ رجله في وقت قعوده بين ظهراني قومه، ثم قيل له: ما آيتك؟ فقال: أن أخرج يدي أو أمدّ رجلي ولا يمكن أحدا منكم أن يفعل مثل فعلي، والقوم أصحاء الأبدان، لا آفة بشيء من

---

[1] انظر: "البرهان في علوم القرآن" (٩٣/٢)، و"الإتقان في علوم القرآن" (٧/٤).

[2] "شرح المواقف" (٢٦٩/٨).

[3] مقالات الاسلاميين ، (١٧٩/١)

[4] "مقالات الإسلاميين" (١٧٩/١)

[5] هو حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي أبو سليمان المعروف بالخطابي، فقيه محدث، صاحب تصانيف ، توفي سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة. انظر: "الوفيات" لابن جني ص٩٠ و"البداية والنهاية" (٣٢٤/١١).

جوارحهم، فحرّك يده أو مدّ رجله، فراموا أن يفعلوا مثل فعله فلم يقدروا عليه وكان ذلك آية دالّة على صدقه. وليس ينظر في المعجزة إلى عظم حجم ما يأتي به النبي، ولا إلى فخامة منظره، وإنما تعتبر صحتها خارجا عن مجرى العادات ناقضا لها، فمهما كانت بهذا الوصف كانت آية دالّة على صدق من جاء بها ".[1]

وقال الشريف الجرجاني [2]: " وقيل: إعجازه بالصرفة، على معنى أن العرب كانت قادرة على كلام مثل القرآن قبل البعثة، لكن الله صرفهم عن معارضته، واختلف في كيفية الصرف، فقال الأستاذ أبو اسحاق[3] منا (أي: الأشاعرة) والنظام من المعتزلة: صرفهم الله عنها مع قدرتهم عليها، وذلك بأن صرف دواعيهم إليها، مع كونهم مجبولين عليها، خصوصا عند توفر الأسباب الداعية في حقهم، كالتقريع بالعجز، والاستنزال عن الرياسات، والتكليف بالانقياد، فهذا الصرف خارق للعادة، فيكون معجزا ... وقال المرتضى من الشيعة: بل صرفهم بأن سلبهم العلوم التي يحتاج إليها في المعارضة ".[4]

قال الراغب الأصفهاني[5] : " فلما رُئِي أهل البلاغة والخطابة الذين يهيمون في كل واد من المعاني بسلاطة ألسنتهم، وقد دعا الله جماعتهم إلى معارضة القرآن، وعجزهم عن الإتيان بمثله، وليس تهتز غرائزهم البتة للتصدي لمعارضته، لم يخف على ذي لب أن صارفا إلهيا يصرفهم عن ذلك، وأي إعجاز أعظم من أن تكون

كافة البلغاء مخيرة في الظاهر أن يعارضوه، ومجبرة في الباطن عن ذلك، وما أليقهم بإنشاد أبي تمام:

---

[1] "بيان إعجاز القرآن" مطبوع ضمن "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن" (٢٢، ٢٣).

[2] هو عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني أبو بكر النحوي البلاغي، شافعي أشعري مع دين وسكون، وهو واضع أصول البلاغة، إمام من أئمة اللغة، وله شعر رقيق، توفي سنة إحدى وسبعين وأربعمائة، وقيل سنة أربع وسبعين وأربعمائة. انظر: "بغية الوعاة" (١٠٦/٢)، و"فوات الوفيات والذيل عليها" (٣٦٩/٢)، و"الأعلام" (٤٨/٤).

[3] هو الإمام العلامة الأستاذ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد إبراهيم بن مهران الإسفراييني الأصولي الشافعي الأشعري، صاحب التصانيف، بنيت له مدرسة مشهورة بنيسابور، توفي سنة ثماني عشرة وأربعمائة يوم عاشوراء، انظر "سير أعلام النبلاء" (٣٥٤، ٣٥٥).

[4] "شرح المواقف" (٢٦٩/٨-٢٧٠).

[5] هو الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهاني (أو الأصبهاني) المعروف بالراغب الرّاغِب، أديب وعالم، أصله من أصفهان، وعاش ببغداد. ألف عدة كتب في التفسير والأدب والبلاغة. وتوفي سنة اثنتين وخمسمائة. انظر: "سير اعلام النبلاء" (١٢٠/١٨)، و"الاعلام للزركلي" (٢٥٥/٢).

فإن نك أهملنا فأضعف بسعينا وإن نك أجبرنا ففيم نتعتع ".[1]

وقال الشهرستاني عند كلامه عن قول النظام في إعجاز القرآن: " وإنّه من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والآتية، ومنع العرب عن الاهتمام به جبراً وتعجيزاً، حتى لو خلاّهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله، بلاغةً وفصاحةً ونظماً ".[2]

وقال الفخر الرازي[3]: " قال النظام: إن الله تعالى ما أنزل القرآن ليؤيد به النبوة، بل هو كتاب مثل سائر الكتب المنزلة، لبيان الأحكام من الحلال والحرام، وإنما لم يعارضه العرب، لأن الله صرفهم عن ذلك وسلب دواعيهم عن الاعتراض ".[4]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: " ومن أضعف الأقوال قول من يقول من أهل الكلام: إنه معجز بصرف الدواعي مع تمام الموجب لها أو بسلب القدرة التامة، أو بسلبهم القدرة المعتادة في مثله سلبا عاما، مثل قوله تعالى لزكريا: { آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا }[5] وهو أن الله صرف قلوب الأمم عن معارضته مع قيام المقتضي التام ".[6]

ومع الفرق بين الصرفة عند النظام والصرفة عند المرتضى وغيرهما إلا أن نتيجتهما واحدة، هي أن إعجاز القرآن ليس ذاتيا، وإنما بأمر خارج عنه.

وهناك من جعل الصرفة وجها من وجوه إعجاز القرآن:

قال الرماني[7]: " وجوه إعجاز القرآن تظهر من جهات: ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة والتحدي للكافة، والصرفة، والبلاغة، والأخبار عن الأمور الغيبية ... ".[8]

---

[1] تفسير الراغب الاصفهاني (١/ ٤٦)، وانظر: "الطراز" (٣/٢١٦-٢١٨) ليحيى بن حمزة العلوي.

[2] "الملل والنحل" (١/٥٦).

[3] هو محمد بن عمر بن الحسين التيمي البكري أبو عبد الله فخر الدين الرازي، المفسر الأصولي الفقيه الشافعي الأشعري، مشهور بالتصانيف الصغيرة والكبيرة، وذكر في وصيته أنه رجع عن مذهب الكلام إلى طريقة السلف، توفي سنة ست وستمائة، انظر "البداية والنهاية" (١٣/٥٥)، و"الوافي بالوفيات" (٤/١٧٥)، و"الأعلام" (٦/٣١٣).

[4] "نهاية الإيجاز" (٥).

[5] (مريم: ١٠).

[6] "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح" (٥/٤٢٨).

[7] هو أبو الحسن علي بن عيسى الرماني المعتزلي، كا ن متقنا في علوم كثيرة من القراءات والفقه والنحو والكلام على مذهب المعتزلة، توفي سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، انظر "طبقات المفسرين" للسيوطي(١/٨١)، و"معجم الأدباء" (٤/١٨٢٦).

[8] "النكت في إعجاز القرآن" مطبوع ضمن "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن" (٧٥).

وقال: " وأما الصرفة فهي صرف الهمم عن المعارضة، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة، وذلك خارج عن العادة كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر منها للعقول ".[1]

والجمع بين القول بان القران معجز ببلاغته والقول بالصرفة تناقض ، فإنه ان كان معجزا ببيانه فلا حاجة للقول بالصرفة ، وإن كان الاعجاز بصرف الله للناس عن معارضته فلا حاجة لان يكون معجزا ببيانه لانه مصروفين عن معارضته أصلا .

وهناك من قال بالصرفة على سبيل التنزل والجدال والا فهو ينكرها ويبطلها ، وسيأتي معنا مزيد بيان لمن روي عنه ذلك مع بيان مرادهم .[2]

**المبحث الثاني: نشأة القول بالصرفة وأسباب ظهوره**

قد جاء في بيان نشأة القول بالصرفة أقوال للعلماء والباحثين، يمكن إجمالها فيما يلي:

الأول: أن أول من قال بها واشتهرت عنه هو إبراهيم ابن سيار النظام المعتزلي.

ولم يحفظ قول النظام هذا في كتاب له، لكن أكثر من أرخ للقول بالصرفة نسبوا إليه القول بها. [3]

الثاني: أن أصل القول بالصرفة مأخوذ من البراهمة الهنود.

قال الشيخ محمد أبو زهرة: " وإن بعض المتفلسفين من علماء المسلمين اطلعوا على أقوال البراهمة في كتابهم "الفيدا"، وهو الذي يشتمل على مجموعة من الأشعار، وليس في كلام الناس ما يماثلها في زعمهم، ويقول جمهور علمائهم: إن البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثلها ". [4]

---

[1] "النكت في إعجاز القرآن" مطبوع ضمن "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن" (١١٠).

[2] انظر ص ٣٢ من هذا البحث .

[3] قد سبق نقل ذلك، وانظر: "الموضح عن جهة إعجاز القرآن" (٧٣).

[4] "المعجزة الكبرى" (٦٩، ٧٠)

ونقل كلام أبي الريحان البيروني [١]، ونصه: " إن خاصتهم يقولون: إن في مقدورهم أن يأتوا بأمثالها، ولكنهم ممنوعين من ذلك احتراما لها ".[٢]

وعقب عليه بقوله: " ولم يبين البيروني وجه المنع أهو منع تكليفي يسبقه الإيمان بهذه الكتب، وتكون دلائل وجوب الإيمان من نواح أخرى، أم هو منع تكويني، بمعنى أن براهما صرفهم بمقتضى التكوين أن يأتوا بمثلها؟ ".[٣]

ثم يرجح الشيخ أبو زهرة أن المراد هو القول بالمنع التكويني فيقول: " والأخير هو الظاهر لأنه هو الذي يتفق مع قول جمهور علمائهم، وما اشتهروا به من القول بالصرفة نبع من واديهم ".[٤]

قال الدكتور محمد محمد أبو موسى تعقيبا على كلام ابي زهرة : " إن عبارة خاصة البراهمة ليس فيها هذا الوجه الذي يعني الصرف، وليس فيها غير ما يقرب منه، وإنما هي صريحة من أنهم لم يقولوا مثل أشعار "الفيدا" احتراما لها، وهذا غير ما نحن فيه؛ لأن الصرفة عند علمائنا تعني أمرا إلهيا.

ثم إن كلام البراهمة في "الفيدا" كان محل سخرية العقل الإسلامي، وكانوا يذكرونه مثلا للتسليم بعدم الحجة، ومثلا للمذهب الذي لا مستنصر له؛ لأن الذين قالوا به لاحجة لهم، وكتاب "الفيدا" مثل كتاب زرادشت وماني فيها عند علمائنا حكم وتهوّس ، فكيف يستمدون منها وجها لبيان الحجة في القرآن ".[٥]

ويمكن أن يكون النظام قد أخذ أصل كلامهم هذا دون تفاصيله، فيصح كلام الشيخ أبو زهرة.

وخلاصة ما سبق أن القول بالصرفة ظهر في نهاية القرن الثاني تقريبا، واشتهر عن إبراهيم بن سيار النظام.

---

[١] هو محمد بن أحمد أبو الريحان البيروني الخوارزمي، فيلسوف رياضي مؤرخ ولغوي، من أهل خوارزم، أقام في الهند بضع سنين، واطلع على فلسفة اليونانيين والهنود، واشتهر شهرة عظيمة عند ملوك عصره، وله عدة مؤلفات، توفي سنة أربعين وأربعمائة. انظر: "البغية" (١/٥٠، ٥١)، و"الأعلام" (٥/٣١٤).

[٢] "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" (٩٨).

[٣] "المعجزة الكبرى" (١/٥٨).

[٤] المصدر السابق.

[٥] "الإعجاز البلاغي" (٢٥٨)، حاشية رقم (٨)

**المبحث الثالث: القائلون بالصرفة وأدلتهم**

أولا: القائلون بالصرفة:

إبراهيم بن سيار النظام المعتزلي:[١]

وهو من اشتهرت عنه الصرفة، وقد نسبها إليه جل من تكلم عن الصرفة.

قال الجاحظ المعتزلي[٢]: " فكتبت لك كتاباً، أجهدت فيه نفسي، وبلغت منه أقصى ما يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن، والرد على كل طعان. فلم أدع فيه مسألة لرافضي، ولا لحديثي، ولا لحشوي، ولا لكافر مباد، ولا لمنافق مقموع، ولا لأصحاب النظام، ولمن نجم بعد النظام، ممن يزعم أن القرآن خلق، وليس تأليفه بحجة، وأنه تتريل وليس ببرهان ولا دلالة ".[٣]

وقال عبد القاهر البغدادي: " والفضيحة الخامسة عشرة من فضائحه: أن نظم القرآن وحسن تأليف كلماته، ليست بمعجزة للنبي عليه الصلاة والسلام، ولا دالة على صدقه في دعواه النبوة، وإنما وجه الدلالة منه على صدقه، ما فيه من الإخبار بالغيوب، فأما نظم القرآن وحسن تأليف آياته، فإن العباد قادرون على مثله، وعلى ما هو أحسن منه في النظم والتأليف ".[٤]

وقد نقلنا قبل ذلك كلام أبي الحسن الأشعري وفخر الدين الرازي والشهرستاني، وكلهم نسب ذلك إليه.

---

[١] هو أبو إسحاق إبراهيم بن سيار بن هانئ البصري، المشهور بالنظام، وهو من أئمة المعتزلة، تبحر في علوم الفلسفة، واطلع على أكثر ما كتبه رجالها، وانفرد بآراء خاصة تابعته فيها فرقة من المعتزلة، سميت "النظامية " يقول أشياعه إنه اشتهر بالنظام لإجادته نظم الكلام،ويقول خصومه انه كان ينظم الخرز في سوق البصرة وكان شاعرا أديبا بليغا، وله كتب كثيرة في الفلسفة والاعتزال. توفى سنة إحدى وثلاثين ومائتين. انظر: "الأعلام" (٤٣/١)، و"الفرق بين الفرق" (١١٣)، و"تاريخ بغداد" (٦ /٩٤).

[٢] هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي أبو عثمان الشهير بالجاحظ، كبير أئمة الأدباء، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة، له عدد كبير من المصنفات، توفي سنة خمس وخمسين ومائتين. انظر: "تاريخ بغداد" (٢١٢/١٢)، و"سير أعلام النبلاء" (٥٢٦/١١).

[٣] "رسائل الجاحظ: رسالة حجج النبوة" (٢٨٧/٣).

[٤] "الفرق بين الفرق" (١٤٣).

الشريف المرتضى الشيعي: علي بن الحسين بن موسى بن محمد[١] ، وقد مر معنا التعريف بكتابه الموضح عن جهة إعجاز القرآن الصرفة ، والذي نافح فيه ودافع عن الصرفة .

كما نسب القول بالصرفة إلى المرتضى ونقله عنه كل من نصير الدين الطوسي[٢] ، وفخر الدين الرازي [٣]، والتفتازاني[٤] ، وغيرهم.

أبو إسحاق الإسفراييني الأشعري:[٥]

قال عضد الدين الإيجي[٦]: " وقيل: بالصرفة، فقال الأستاذ أبو اسحاق والنظام: صرفهم الله عنها مع قدرتهم عليها، وقال المرتضى: بل سلبهم العلوم التي يحتاج إليها في المعارضـــــــــة "[٧]

ونسب كذلك إلى ابن حزم، وهو الذي يفهم من كلامه في كتابه الفصل في الملل والنحل، وتحدث عنها في موضعين من كتابه، وكلامه مضطرب، فهو يقول بها تارة ، ولا يقول بها تارة اخرى[٨] .

---

١ هو علي بن الحسين بن موسى أبو القاسم، ولد ببغداد ومات بها، له تصانيف كثيرة، توفي ســنة ســت وثلاثــين وأربعمائة. انظر: "وفيات الأعيان" (٣١٣/٣)، و"ميزان الاعتدال" (٢٢٣/٢).

٢ انظر "شرح تجريد الكلام" (٣٦٦) للقوشجي. ونصير الدين الطوسي هو محمد بن محمد بن الحسن أبو جعفر، شيعي فيلسوف، قيل عنه: كان مناصرا لأهل الفلسفة والإلحاد عدوا لأهل الحديث والفقه، كان عالما بالعلوم العقلية والأرصاد، ومقربا عند هولاكو، فاسد الاعتقاد، توفي سنة اثنتين وسبعين وستمائة، انظر: "البداية والنهاية" (٢٦٧/١٣)، و"شذرات الذهب" (٣٣٩/٥)، و"الأعلام" (٥٧/٧).

٣ "نهاية الإيجاز" (٥)

٤ "شرح المقاصد" (١٣٥/١). والتفتازاني هو مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني، سعد الدين، العلامة الكبير، تقدم في الفنون وانتفع الناس بتصانيفه، انتهت إليه معرفة علوم البلاغة والمعقول بالمشرق، له تصانيف عديدة، توفي سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة. انظر: "الدرر الكامنة" (١٩/٥)، و"بغية الوعاة" (٢٨٥/٢)، و"الأعلام" (٢١٩/٧).

٥ هو عبد القاهر طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي الإسفراييني، فقيه شافعي أصولي، أديب شاعر، عــالم متقن، عالم بالفرائض والنحو، كان صدر الإسلام في عصرة، ولد ببغداد ونشأ بها، توفي سنة تسع وعشرين وأربعمائة. انظر: "البغية" (١٠٥/٢، ١٠٦)، و"فوات الوفيات" (٣٧٠/٢-٣٧٢)، و"الأعلام" (٤٨/٤).

٦ هو عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار أبو الفضل عضد الدين الإيجي، عالم بالأصول والمعاني والعربية، من أهل (إيج ) بفارس، ولي القضاء، وجرت له محنة مع والي ( كرمان )، فحبسه بالقلعة، فمات مسجونا، له تصانيف عديدة، توفي سنة ست وخمسن وسبعمائة. انظر: "الدرر الكامنة" (٤٢٩/٢)، و"البغية" (٧٥/٢، ٧٦)، و"الأعلام" (٢٩٥/٣).

٧ "المواقف" (٣٥٠).

٨ "الفصل في الملل والنحل" (٢٨/٣).

فنسبه إلى القول بها الرافعي [1] والشيخ أبو زهرة [2] وذهب الدكتور محمد أبو موسى إلى القول بأن ابن حزم لم يحكم القول في هذه المسألة [3]

كما نُسب هذا القول أيضا إلى [4]:

عيسى بن صبيح المكنى بأبي موسى المردار: تولى رئاسة المعتزلة ، وأبو الحسن الرماني: سبق ذكره، وتبين أنه يجعل الصرفة أحد وجوه الإعجاز، فهو يرى أن القرآن معجز في ذاته ، وعباد بن سليمان الصخري: معتزلي ، من أهل البصرة ، والقاضي هشام بن عمرو القوطي: بصري. عدّه القاضي في نهاية الطبقة السادسة من المعتزلة ، وأبو إسحاق النصيبي: من الطبقة الحادية عشرة من المعتزلة، وعبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي: شاعر أديب، يرى رأي الشيعة الإمامية، ومات سنة ست وستين وأربعمائة.

**ثانيا: أدلة القائلين بالصرفة**

الذين قالوا بالصرفة لا يوجد لهم دليل نقلي، وإنما جل ما اعتمدوا عليه مذهبهم هو استدلالات عقلية .

قال الباقلاني حاكيا قول من قال بالصرفة في معرض ردهم على من انكرها : " فلم زعمتم أنّ البلغاء عاجزون عن الإتيان بمثله (القران ) مع قدرتهم على صنوف البلاغات، وتصرفهم في أجناس الفصاحات؟

وهلا قلتم من قدر على هذه الوجوه البديعة بوجه من هذه الطرق الغريبة، كان على مثل نظم القرآن قادراً، وإنما يصرفه الله عنه ضرباً من الصرف ، أو يمنعه من الإتيان بمثله ضرباً من المنع ، أو تقصر دواعيه إليه دونه مع قدرته عليه، ليتكامل ما أراده الله من الدلالة ، ويحصل ما قصده من إيجاد الحجة.

لأنّ من قدر على نظم كلمتين بديعتين، لم يعجز عن نظم مثلها، وإذا قدر على ذلك ؛ قدر على ضم الثانية إلى الأولى ؛ وكذلك الثالثة ؛ حتى يتكامل قدر الآية والسورة "[5].

---

[1] "الإعجاز" (١٤٦).

[2] "المعجزة الخالدة" (٧٢).

[3] "الإعجاز البلاغي" (٣٧٤-٣٨٣).

[4] انظرفي ترجمة هؤلاء ونسبة القول بالصرفة اليهم : "مقالات الإسلاميين" (٢٩٦/١)، و"الفرق بين الفرق" (١٦٥)، و"الملل والنحل للشهرستاني" (٥٤/١).

[5] "إعجاز القرآن" الباقلاني ، دار المعارف مصر ، الطبعة: الخامسة، ١٩٩٧م ، ٢٩/١

وقال البلخي موضحا مذهب القائلين بالصرفة وحجتهم في ذلك : " واحتج الذين ذهبوا إلى أن نظمه – يعني القرآن – ليس بمعجز، إلا أن الله تعالى أعجز عنه، فإنه لو لم يعجز عنه لكان مقدورا عليه ؛ بأنه حروف قد جُعل بعضها إلى جنب بعض، وإذا كان الإنسان قادرا على أن يقول الحمد ؛ فهو قادر على أن يقول الله، ثم كذلك القول في كل حرف ، وإذا كان هكذا فالجميع مقدور عليه، لولا أن الله تعالى أعجز عنه ". [١]

وقال صاحب "شرح تجريد الكلام"[٢]: " واحتجوا بوجهين:

الأول: أنا نقطع بأن فصحاء العرب كانوا قادرين على التكلم بمثل مفردات السور ومركباتها القصيرة، مثل: الحمد لله، ومثل: رب العالمين، وهكذا إلى آخره، فيكونون قادرين على الإتيان بمثل السورة.

والثاني: أن الصحابة عند جمع القرآن كانوا يتوقفون في بعض السور والآيات إلى شهادة الثقات، وابن مسعود قد بقي مترددا في الفاتحة والمعوذتين، ولو كان نظم القرآن معجزا لفصاحته لكان كافيا في الشهادة ". [٣]

وقال في الرد على ذلك: " والجواب عن الأول أن حكم الجملة قد يخالف حكم الأجزاء، وهذه بعينها شبهة من نفى قطعية الإجماع والخبر المتواتر، ولو صح ماذكر لكان كل من آحاد العرب قادرا على الإتيان بمثل قصائد فصحائهم كامرئ القيس وأقرانه، واللازم قطعي البطلان ". [٤]

ثم قال في معرض الرد على احتجاجهم الثاني: " وعن الثاني بعد صحة الرواية [٥] كون الجمع بعد النبي صلى الله عليه وسلم لا في زمانه، وكون كل سورة مستقلة

---

[١] "الموضح عن جهة إعجاز القرآن الصرفة" (١٠٧-١١٦)، وهذا النص جزء من نقاش مطول ناقش المرتضى فيه كلام البلخي ومن وافقه من المعتزلة في تقريره لما ذهب إليه في هذه المسألة.

[٢] "تجريد الكلام في تحرير عقائد الإسلام" هو كتاب من الكتب الكلامية عند الشيعة الإمامية، وهو من تأليف العالم الشيعي المعروف نصير الدين الطوسي المتوفّى سنة ٥٩٧ه

[٣] شرح تجريد الكلام ، لعلاء الدين القوشجي ، ص (٣٦٦)

[٤] ص (٣٦٦)، وانظر: "شرح المقاصد" (١٣٦/١).

[٥] الذي ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه هو توقفه في المعوذتين، انظر كلام ابن حجر عن هذه المسالة في : "فتح الباري" (٦١٥/٨، ٦١٦)، ولم يرد توقف ابن مسعود في الفاتحة.

بالإعجاز، أن ذلك كان للاحتياط والاحتراز عن أدنى تغيير لا يخل بالإعجاز ، وأن إعجاز كل سورة ليس مما يظهر لكل أحد بحيث لا يبقى له تردد أصلا ". [1]

ويقول الرماني : " القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة، وذلك خارج عن العادة، كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر فيها للعقول " [2].

يقول الدكتور الشهري: " إذا فقد تأسس القول بالصرفة على ما يأتي:

١ – من حيث المفردات: جميع المفردات التي استعملها القرآن دون استثناء هي عربية وضعا، أو عربية تعريبا ...

٢ – أسلوب القرآن في التراكيب هو أسلوب العرب، لكنه جاء على أسلوب النثر...

٣ – العرب في أيام نزول القرآن كانوا قد قطعوا جميع المسافات في نضج اللسان العربي...

أمام الحقائق الثلاث السابقة، وهي التطابق التام بين العربية عند أهلها، وبين عربية القرآن، فكيف عجز العرب – وهم أهل الكلام

فيها على السليقة، وهم واضعو العربية مفردات وتراكيب – عن الإتيان بمثله؟ هذا هو الدليل الذي استند عليه القائلون بالصرفة مذهبا رئيسيا في إعجاز القرآن وعجز العرب عن معارضته، وهذا دليل ينسجم مع المذاهب الكلامية..." [3]

**المبحث الرابع: أوجه بطلان الصرفة**

لقد رد جمع من العلماء على القائلين بالصرفة، وبينوا بطلان هذا القول بما لا مزيد عليه، ومن أبرز من اشتهروا قديما بالرد على القائلين بالصرفة الباقلاني والخطابي والجاحظ والقاضي عبد الجبار والإيجي والجرجاني وشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهم ، كما سيأتي النقل عنهم في ذكر وجوه البطلان الآتية.

---

[1] ص (٣٦٦)، و "شرح المقاصد" (١٣٦).

[2] "النكت في إعجاز القرآن" مطبوع ضمن "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن" (١١٠).

[3] " القول بالصرفة في إعجاز القرآن عرض ونقد" (٧٧).

ثم تلاهم غيرهم من العلماء والمؤلفين ممن رد على القول بالصرفة بمؤلفات مستقلة او ثناي كتبهم عن اعجاز القران او كتب التفسير والعقيدة او كتب البلاغة وغير ذلك.

وحاولت هنا جمع أكبر قدر ممكن من الردود النقلية او المستنبطة منها أوالعقلية على بطلان القول بالصرفة ، واثبات اعجاز القران بنظمه ، وأهم تلك الردود مايلي :

الأول:

أن القول بالصرفة فيه معارضة لقوله تعالى: { قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا }[1] إذ لو كان الإعجاز بالصرفة لقيل مثلا: لو اجتمعوا لما انعقدت لهم عزيمة على الإتيان بمثله، ولم يرد ذلك بحال.

والآية تدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو زالت القدرة لم يبق فائدة لاجتماعهم لمنزلته منزلة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى بكبير يحتفل بذكره.[2]

الثاني:

أن الإجماع وقع قبل قول النظام بالصرفة على أنّ القرآن معجز بنظمه ، قال القرطبي مفندا القول بالصرفة: " وهذا فاسد، لأن الإجماع – قبل حدوث المخالف – أن القرآن هو المعجز، فلو قلنا: إن المنع والصرفة هو المعجز، لخرج القرآن عن أن يكون معجزا، وذلك خلاف الإجماع، وإذا كان كذلك، علم أن نفس القرآن هو المعجز، وأن فصاحته وبلاغته أمر خارق للعادة، إذ لم يوجد كلام قط على هذا الوجه، فلما لم يكن كذلك مألوفا معتادا منهم، دل على أن المنع والصرفة، لم يكن معجزا ". [3]

وممّا قاله السيوطي رادّا على القائلين بالصرفة: " هذا مع أنّ الإجماع منعقد على إضافة الإعجاز للقرآن فكيف يكون معجزا وليس فيه صفة الإعجاز ". [4]

---

[1] (الإسراء: ٨٨).

[2] انظر: "المغني لعبد الجبار" (٣٢٥/١٦)، و"الإتقان" ( ٧/٤ )، و"البرهان" (٩٤/٢)، و"المعجزة الخالدة" (١٦٦)، و"قضية الإعجاز القرآني" (٧٢، ٧٣) لعبد العزيز عرفة.

[3] "الجامع لأحكام القرآن" (٧٥/١).

[4] "الإتقان" (١١٨/٢).

وممن ذكر هذا الإجماع واستدل به كذلك علي بن محمد الجرجاني في "شرح المواقف".[1]

إذا فالقول بالصرفة يقتضي أن القرآن ليس معجزا في ذاته، بل العجز منهم لإعجاز الله لهم، فانتفى الإعجاز عن القرآن الذي هو معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم [2]، وانتفاء الإعجاز عن القرآن بذاته مخالف لإجماع المسلمين قبل ظهور القول بالصرفة كما ذكره القرطبي وغيره.[3]

الثالث:

أنه ثبت أن العرب إنما بهروا من بيان القرآن وفصاحته [4]، وعلى ذلك أدلة كثيرة من الوقائع التاريخية، وأن جمال بيانه وعجيب نظمه هو الذي جعلهم يخافون أن يتبعه الناس مما دعاهم للتواصي لمنع الناس من سماعه حتى لا يتأثروا به { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ } [5]

**ومن الأمثلة على ذلك من الوقائع والأحداث التاريخية ما يلي:**

قصة الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ المعروفة ، عندما قال : " ... فَوَاللَّهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالأَشْعَارِ مِنِّي، وَلا أَعْلَمَ بِرَجَزٍ وَلا بِقَصِيدَةٍ مِنِّي وَلا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ وَاللَّهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا وَوَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلاهُ مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى، وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ "، قَالَ: لا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ، قَالَ: فَدَعْنِي حَتَّى أُفَكِّرَ، فَلَمَّا فَكَّرَ، قَالَ: " هَذَا سِحْرٌ يُؤْثَرُ يَأْثُرُهُ مِنْ غَيْرِهِ "، فَنَزَلَتْ { ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا } [6]

---

[1] ص (٢٧٣/٨).

[2] انظر: " إعجاز القرآن للباقلاني" (٤٣)، و"المغني في أبواب التوحيد والعدل" (٣٢٥/١٦)، و"البرهان" (٩٤/٢)، "ونهاية الإيجاز" (٥، ٦)، "إعجاز القرآن للرافعي" (١٤٤)، و"المعجزة الكبرى لأبي زهرة" (٧٣، ٧٤)، و"المعجزة الخالدة" (١٧٠).

[3] نص على هذا الاجماع القرطبي في تفسيره (٧٥/١)، والزركشي في "البرهان" (٩٤/٢)، وانظر "قضية الإعجاز" (٧٣)، و"المعجزة الخالدة" (١٧٠).

[4] انظر: " المغني في أبواب التوحيد والعدل" (٣٢٥/١٦)، و"المعجزة الكبرى لأبي زهرة" (٧٣)، و"شرح المقاصد" (١٣٦)، و"الفوائد المشوق لابن القيم" (٢٥٢).

[5] (فصلت: ٢٦).

[6] (المدثر: ٢٤)، والحديث أخرجه الحاكم في "المستدرك" (٣٨٠٠)

٢ – عن جبير بن مطعم سمعتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقرأُ في المغرب بالطُّور، فلمَّا بلغَ هذه الآية: { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ. أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ. أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمُسَيْطِرُونَ } [١]. كادَ قلبي أنْ يطيرَ. [٢]

٣ – وكذلك في قصة إِسْلَامُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه عندما قَالَ لِأُخْتِه: أَعْطِينِي هَذِه الصَّحِيفَةَ فلما أَعْطَتْهُ الصَّحِيفَةَ، وَفِيهَا طَهَ، فَقَرَأَهَا، فَلَمَّا قَرَأَ صَدْرًا مِنْهَا قَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا الْكَلَامَ وَأَكْرَمَهُ ثم أسلم بعد ذلك. [٣]

الرابع:

المحاولات التي قام بها بعضهم، كمسيلمة الكذاب وسجاح وغيرهما، إلا أنها خابت كلها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " وأيضا فالناس يجدون دواعيهم إلى المعارضة حاصلة، لكنهم يحسون من أنفسهم العجز عن المعارضة، ولو كانوا قادرين لعارضوه. وقد انتدب غير واحد لمعارضته، لكن جاء بكلام فضح به نفسه،

وظهر به تحقيق ما أخبر به القرآن من عجز الخلق عن الإتيان بمثله، مثل قرآن مسيلمة الكذاب، كقوله: يا ضفدع بنت ضفدعين، نقي كم تنقين، لا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين، رأسك في الماء، وذنبك في الطين ". [٤]

الخامس:

أنهم يعرفون أنه لم يختلف حال قدرتهم قبل سماعه وبعد سماعه، فلا يجدون أنفسهم عاجزين عما كانوا قادرين عليه كما وجد زكريا عجزه عن الكلام بعد قدرته عليه. [٥]

السادس:

لا نزاع بين العقلاء المؤمنين بمحمد والمكذبين له، إنه كان قصده أن يصدقه الناس ولا يكذبوه، وكان – مع ذلك – من أعقل الناس وأخبرهم وأعرفهم بما جاء به،

---

[١] (الطور: ٣٥-٣٧)

[٢] أخرجه البخاري (٧٦٥، ٣٠٥٠، ٤٠٢٣، ٤٨٥٤)، ومسلم (٤٦٣)

[٣] انظر القصة بطولها في "فضائل الصحابة" لأحمد بن حنبل.(٢٧٧/١)

[٤] "الجواب الصحيح" (٤٢٨/٥).

[٥] المصدر السابق.

ينال مقصوده، سواء قيل: إنه صادق أو كاذب. فإن من دعا الناس إلى مثل هذا الأمر العظيم، ولم يزل حتى استجابوا له طوعا وكرها، وظهرت دعوته وانتشرت ملته هذا الانتشار، هو من عظماء الرجال على أي حال كان. فإقدامه – مع هذا القصد – في أول الأمر وهو بمكة، وأتباعه قليل، على أن يقول خبرا، يقطع به أنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، لا في ذلك العصر، ولا في سائر الأعصار المتأخرة، لا يكون إلا مع جزمه بذلك، وتيقنه له، وإلا فمع الشك والظن لا يقول ذلك من يخاف أن يظهر كذبه فيفتضح فيرجع الناس عن تصديقه.

وإذا كان جازما بذلك متيقنا له لم يكن ذلك إلا عن إعلام الله له بذلك. وليس في العلوم المعتادة أن يعلم الإنسان أن جميع الخلق لا يقدرون أن يأتوا بمثل كلامه إلا إذا علم العالم أنه خارج عن قدرة البشر.

والعلم بهذا يستلزم كونه معجزا، فإنا نعلم ذلك وإن لم يكن علمنا بذلك خارقا للعادة، ولكن يلزم من العلم ثبوت المعلوم، وإلا كان العلم جهلا، فثبت أنه على كل تقدير يستلزم كونه خارقا للعادة. [1]

السابع :

نفس نظم القرآن وأسلوبه عجيب بديع ليس من جنس أساليب الكلام المعروفة، ولم يأت أحد بنظير هذا الأسلوب، فإنه ليس من جنس الشعر ولا الرجز ولا الخطابة ولا الرسائل، ولا نظمه نظم شيء من كلام الناس عربهم وعجمهم، ونفس فصاحة القرآن وبلاغته هذا عجيب خارق للعادة، ليس له نظير في كلام جميع الخلق، وبسط هذا وتفصيله طويل، يعرفه من له نظر وتدبر.

ونفس ما أخبر به القرآن في باب توحيد الله وأسمائه وصفاته، أمر عجيب خارق للعادة، لم يوجد مثل ذلك في كلام بشر، لا نبي ولا غير نبي.

وكذلك ما أخبر به عن الملائكة والعرش والكرسي والجن وخلق آدم، وغير ذلك، ونفس ما أمر به القرآن من الدين، والشرائع كذلك، ونفس ما أخبر به من الأمثال، وبينه من الدلائل هو أيضا كذلك.

ومن تدبر ما صنفه جميع العقلاء في العلوم الإلهية والخلقية والسياسية وجد بينه وبين ما جاء في الكتب الإلهية – التوراة والإنجيل والزبور وصحف الأنبياء – وجد

[1] "الجواب الصحيح" (٥/٤٢٩-٤٣١)

بين ذلك وبين القرآن من التفاوت أعظم مما بين لفظه ونظمه، وبين سائر ألفاظ العرب ونظمهم.

فالإعجاز في معناه أعظم وأكثر من الإعجاز في لفظه، وجميع عقلاء الأمم عاجزون عن الإتيان بمثل معانيه أعظم من عجز العرب عن الإتيان بمثل لفظه. وما في التوراة والإنجيل: ولو قدر أنه مثل القرآن، لا يقدح في المقصود، فإن تلك كتب الله أيضا ولا يمتنع أن يأتي نبي بنظير آية نبي، كما أتى المسيح بإحياء الموتى، وقد وقع إحياء الموتى على يد غيره؛ فكيف وليس ما في التوراة والإنجيل مماثلا لمعاني القرآن؛ لا في الحقيقة ولا في الكيفية ولا الكمية، بل يظهر التفاوت لكل من تدبر القرآن وتدبر الكتب.

وهذه الأمور من ظهرت له من أهل العلم والمعرفة، ظهر له إعجازه من هذا الوجه، ومن لم يظهر له ذلك اكتفى بالأمر الظاهر الذي يظهر له ولأمثاله كعجز جميع الخلق عن الإتيان بمثله مع تحدي النبي، وإخباره بعجزهم، فإن هذا أمر ظاهر لكل أحد. [1]

الثامن:

ما ذكره ابن كثير ردا على القول بالصرفة، قال: " وأما من زعم من المتكلمين أن الإعجاز إنما هو من صرف دواعي الكفرة عن معارضته مع إنكار ذلك، أو هو سلب قدرتهم على ذلك، فقول باطل، وهو مفرع على اعتقادهم أن القرآن مخلوق، خلقه الله في بعض الأجرام، ولا فرق عندهم بين مخلوق ومخلوق، وقولهم هذا كفر وباطل، وليس مطابقا لما في نفس الأمر، بل القرآن كلام الله غير مخلوق، تكلم به كما شاء تعالى، وتقدس وتنزه عما يقولون علوا كبيرا، فالخلق كلهم عاجزون حقيقة وفي نفس الأمر عن الإتيان بمثله، وتنزه عما يقولون علوا كبيرا، فالخلق كلهم عاجزون حقيقة وفي نفس الأمر عن الإتيان بمثله ولو تعاضدوا وتناصروا على ذلك، بل لا تقدر الرسل الذين هم أفصح الخلق، وأعظم الخلق وأكملهم أن يتكلموا بمثل كلام الله، وهذا القرآن الذي يبلغه الرسول صلى الله عليه وسلم عن الله، أسلوب كلامه لا يشبه أساليب كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأساليب كلامه عليه السلام المحفوظة عنه بالسند الصحيح إليه لا يقدر أحد من الصحابة ولا من بعدهم أن يتكلم بمثل أساليبه في فصاحته

[1] "الجواب الصحيح" (٤٢٩)، وما بعدها.

وبلاغته، فيما يرويه من المعاني بألفاظه الشريفة، بل وأسلوب كلام الصحابة أعلى من أساليب كلام التابعين، وهلم جرا إلى زماننا، و علماء السلف أفصح وأعلم وأقل تكلفا فيما يرونه من المعاني بألفاظهم من علماء الخلف، وهذا يشهده من له ذوق بكلام الناس كما يدرك تفاوت ما بين أشعار العرب في زمن الجاهلية، وبين أشعار المولدين الذين كانوا بعد ذلك. [1]

التاسع :

لو كان الإعجاز بالصرفة لكان مقتضى الحكمة إنزال القرآن في مستوى بلاغي قريب المتناول، لا في الدرجة القصوى من البلاغة والفصاحة؛ لتظهر عظمة المعجزة في المنع من مثله، والصرف عنه، وهذا خلاف ما ورد في القرآن من أوصاف له تشيد بعظمة بيانه وسموه.[2]

العاشر:

يلزم من القول بالصرفة أن العرب قد صرفوا عن هذا المستوى، وتراجع حالهم في البلاغة والبيان وجودة النظم وشرف اللفظ، وهذا اللازم باطل؛ لأنه مخالف للواقع في نفس الأمر؛ حيث لم ينقل أحد أنهم رجعوا القهقرى في ذلك قِيد أنملة، ولا أقل من ذلك. [3]

الحادي عشر:

قال البغدادي: " وزعم النظام أن الإعجاز في القرآن من جهة ما فيه من الإخبار عن الغيوب، ولا إعجاز في نظمه، وزعم مع أكثر القدرية أن الناس قادرون على مثل القرآن وعلى ما هو أبلغ منه في الفصاحة والنظم.

وقد أكذبهم الله عز وجل في ذلك بأن تحدى المشركين بأن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، ولا يكون في الافتراء تحقيق غيب، فدل على أنه إنما أراد تحقيق إعجازه من جهة النظم والفصاحة ". [4]

---

[1] "البداية والنهاية" (٦٩/٦).

[2] انظر: "إعجاز القرآن للباقلاني" (٥٥)، و"شرح تجريد الكلام للقوشجي" (٣٦٦، ٣٦٧)، و"شرح المقاصد" (١٣٦)، و"قضية الإعجاز" (٧٣)، و"المعجزة الخالدة" (١٦٧).

[3] انظر: "المغني" (٣٢٥/١٦، ٣٢٦)،و"نهاية الإيجاز" (٥، ٦)، و"الفوائد المشوق" (٢٥٢).

[4] "أصول الدين" (١٨٤).

الثاني عشر:

أن أهل البلاغة والفصاحة إذا سمعوا كلاما بليغا يطمعون في مجاراته ومعارضته، لا يتأخرون عن ذلك، فكيف إذا كانت هناك دواع كثيرة وقوية، كَسَبِّ آلهتهم وتسفيه أحلامهم ... إلخ.

مع تحديهم بطلب المعارضة، بل وتقريعهم واستفزازهم بأنهم لم ولن يستطيعوا المعارضة.

فكل ذلك يدفعهم للمحاولة في معارضة القرآن ومجاراته، فلو أحسوا من أنفسهم أنهم لا يستطيعون مع أن المتحدى به ليس معجزا في ذاته – بل يمكنهم الإتيان بمثله – لكان ذلك مثيرا للجدل العريض عن سبب عجزهم عن معارضة كلام مقدور على مثله، ولو حدث ذلك لنقل إلينا بلا شك، فلما لم ينقل إلينا ولم يؤثَر عنهم شيء من ذلك كان ذلك دليلا واضحا على بطلان قول من بالصرفة. [1]

الثالث عشر:

إذا كان العرب صرفوا عن الإتيان بمثل القرآن الكريم بعد نزوله ووقوع التحدي فما بالنا لا نجد في كلامهم قبل وقوع التحدي ما يشبهه أو يقاربه في بلاغته وبيانه؟

قال الباقلاني: " إننا لوسلمنا أن العرب المعاصرين للبعثة قد صرفوا كما يزعمون، لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به في الفصاحة والبلاغة، وحسن النظم، وعجيب الرصف، فَلِمَ لم يوجد في كلام من قبله مثله ". [2]

قال الشريف الجرجاني: " إنه لا يتصور الإعجاز بالصرفة، وذلك لأنهم كانوا حينئذ يعارضونه بما اعتيد منهم من مثل القرآن الصادر عنهم قبل التحدي به، بل قبل نزوله، فإنهم لم يتحدوا بإنشاء مثله بل بالإتيان به فلهم بعد الصرفة الواقعة بعد التحدي، أن يعارضوا القرآن بكلام مثله صادر عنهم قبل الصرفة ". [3]

---

[1] انظر: "إعجاز القرآن للباقلاني" (٤٢)، و"دلائل الإعجاز للجرجاني" (٣٩٠)، و"شرح المقاصد" (١٣٥/٢)، و"النبأ العظيم" (٨٩)، و"المعجزة الخالدة" (١٧٩، ١٨٠).

[2] "إعجاز القرآن للباقلاني" (٤٣).

[3] "شرح المواقف" (٢٧٣/٨).

الرابع عشر:

القول بالصرفة يقتضي أنّ الإعجاز فيها ؛ وفي قدرة الله الخارقة، لا في القرآن الكريم الذي يفقد بذلك كلّ فضيلة وتميز على غيره من الكلام، وهذا مخالف لنصوص الكتاب والسنة التي تثني على القرآن الكريم، وتؤكد على خصوصيته وتميزه عن سائر الكلام، بما في ذلك سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والحديث القدسي.

فإذا قلنا الاعجاز بالصرفة فهنا الاعجاز يضاف لله سبحانه وتعالى الذي أعجزهم وليس للقرآن ولم يصبح للقران مزية .

وإلى هذا أشار الباقلاني بقوله: " إنه لو كانت المعارضة ممكنة، وإنما منع منها الصرفة، لم يكن الكلام معجزا، وإنما يكون المنع هو المعجز، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره. [١]

الخامس عشر:

صرف الناس وحملهم قهرا على شيء معين من خصائص الله، ولا يتحدى به إلاّ من ادّعى شيئا منها، كما فعل إبراهيم مع النمرود في مسألة إحياء الموتى وشروق الشمس وغروبها، أما العرب فهم مقرون بقدرة الله على الإحياء والإماتة والخلق والرزق ... وعلى الصرفة، فلا يجوز أن يتحدون بما يقرون به أصلا. [٢]

السادس عشر:

جميع المعجزات السابقة استمدت إعجازها من ذاتها، كالعصا، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، فما بال أعظم المعجزات لخلودها وعمومها ... تستثنى من هذا الأصل الذي يقدح فيها وينقص من قيمتها أمام باقي المعجزات بل أمام غير المعجزات حتى الكلام البشري العادي. [٣]

السابع عشر:

أن مثل الذين يقولون: إن إعجاز القرآن بالصرفة كمثل الذين قالوا: إِنِ القرآن إلا سحر يؤثَر.

---

[١] "إعجاز القرآن" (٥٤).

[٢] " نظرية الصرفة حقيقتها القائلون بها والردّ عليها" مقال لفتحي بودفلة على الشبكة العنكبوتية

[٣] المصدر السابق.

ووجه الشبه: أن الامتناع عن المماثلة في كليهما من خارج الشيء، لا من ذاته. [1]

الثامن عشر:

أن التحدي وقع على الإتيان بمثل القرآن، لا على الامتناع مما اعتادوه من البلاغة والفصاحة، إذ لو كان التحدي بذلك لكان ولو لم ينزل القرآن. [2]

**المبحث الخامس: القول بالصرفة وعلاقته بالعقيدة**

**أولا : أثر القول بالصرفة على عقيدة المسلم**

وردت العديد من الايات تعلن التحدي أن ياتي احد بمثل القران ،

قال تعالى : { قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا }[3]

وغير ذلك من آيات التحدي، كالتحدي بعشر سور أو التحدي بسورة، فلو لم يكن القرآن معجزا في ذاته لما جاز التحدي به.

وهذا يدل ان الاعجاز هو في القران ذاته في نظمه بالذات ، لان الله تحداهم ان ياتوا بعشر سور مفتريات وهنا لا اعتبار لاعجاز المعاني لان المفتريات لن يكون فيها اعجاز في المعنى ، فهذا دليل واضح على ان المقصود هو التحدي في النظم والبلاغة والبيان .

والقول بالصرفة يناقض هذا ، ويجعل الاعجاز لسبب غير القران وفي هذا تقليل من مكانة وقيمة القران .

كما أن في القول بالصرفه تقليل من مكانة ما احتواه القران من نظم بديع ياخذ بالالباب ؛ شهد بذلك الاعداء قديما وحديثا في قصص مشهورة معلومة .

كما تكمن خطورة القول بالصرفة على عقيدة المسلم في أن بعض من نسبت اليهم انما قالوا بها انطلاقا من عقيدتهم الفاسدة في القول بخلق القران والعياذ بالله ، فالقول بالصرفة وأن الاعجاز ليس من ذات القران وانما من شيء خارج عنه ، وهو ان الله صرف الخلق عن الاتيان بمثله يمهد لهم الطريق نشر بدعتهم تلك والدعوة اليها .

---

[1] "إعجاز القرآن للرافعي" (١٤٦)، و"المعجزة الكبرى" (٧٤، ٧٥).

[2] انظر: "المغني" في أبواب التوحيد والعدل(١٦/٢٢٨-٢٣٨).

[3] (الإسراء: ٨٨)

بل ان القول بالصرفه قد يؤدي الى الجرأة على القران العظيم والى انكار اعجازه بالكلية من كافة الوجوه ، وانكار ان القران من معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم ، هو تكذيب للقران الكريم .

لكن من المهم أن نبين أن الذين قالوا بالصرفة لم يريدوا أن ينفوا أن القران معجز ، بل كانوا يريدن اثبات عجز الخلق ان يأتوا بمثله لكن ليس لأنه معجز في ذاته وإنما بسبب خارج عنه وهو أن الله صرفهم.

وهم ذهبوا الى الى القول بالصرفة " من باب الاستدلال العقلي على اثبات اعجاز القران الكريم كما يقولون "[1]، وقولهم بأن الصرفة هي وجه إعجاز القرآن "لا يعطل الدلالة العقلية للقرآن على صحة النبوة ( نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم) ، بل هي قائمة تامة حتى على القول به ... إلا أن القول بها ينزل بإعجاز القران من مرتبة الإعجاز الذاتي إلى مرتبة الإعجاز الخارجي "[2]

" وليس هذا فحسب بل هذا يجعل كون كلام الله له مزية على كلام الناس محل شك ، إذ حاصله أن كلام الله ككلام غيره ، بيد أن الله – لعظيم قدرته – قد صرف الناس عن معارضته وهذا وجه قبيح لا ينبغي التساهل به "[3]

لقد وقعوا في القول بالصرفة للدفاع عن القران ضد الفلاسفة حيث رأوا أنه قد يطول الجدال معهم في اثبات اعجاز القران وخاصة بعض سوره القصيرة ولذلك رأوا قطع اللجج بالقول بالصرفة .

يقول ابن كثير رحمه الله " :" وقد قرر بعض المتكلمين الإعجاز بطريق يشمل قول أهل السنة ، وقول المعتزلة في الصرفة فقال: إن كان هذا القرآن معجزا في نفسه لا يستطيع البشر الإتيان بمثله ، ولا في قواهم معارضته فقد حصل المدعى وهو المطلوب ، وإن كان في إمكانهم معارضته بمثله ولم يفعلوا ذلك مع شدة عداوتهم له ، كان ذلك دليلا على أنه من عند الله لصرفه إياهم عن معارضته مع قدرتهم على ذلك .

وهذه الطريقة ( يقصد طريقة القول بالصرفة ) وإن لم تكن مرضية ؛ لأن القرآن الكريم في نفسه معجز لا يستطيع البشر معارضته كما قررنا إلا أنها تصلح على سبيل

---

[1] الصرفة د. عبد الرحمن الشهري ص ١٠١

[2] الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد للدكتور سعود العريفي ٥٣٦

[3] الصرفة د. عبد الرحمن الشهري ص ١٠٢

التنزل والمجادلة والمنافحة عن الحق ، وبهذه الطريقة أجاب الرازي في تفسيره عن سؤاله في السور القصار كـ (العصر) ، و( إنا أعطيناك الكوثر) " .(١)

يقول الدكتور زرزور : " لأن هذا الرأي قد يكون آكد في باب الايمان والتسليم بأن القران كلام الله ... ولكنه من باب البعد تذوق البلاغة والبيان "٢

يقول د. محمد أبو موسى : وقد كان للقول بالصرفة : " شيعة من أهل العلم الذين رأوه طريقا مختصرا وواضحا في اثبات المعجزة وبرهان النبوة ،وأن الاحتجاج به نافع مع أهل الجدل من المخالفين والمضلين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم من أهل النظر ، وأن الدخول معهم في مسألة النظم يفتح باب اللجاجة والشغب والمدافعة بالباطل ، لأنه باب يضيق مجال الحجة فيه " ٣

لكن الشيخ محمد رشيد رضا يصف ذلك بأنه : " رأي كسول أحب أن يريح نفسه من عناء البحث ، وإجالة قَدَح الفكر في هذا الأمر ".٤

ومن العلماء من أثبتوا أن القران معجز ببيانه وناصروا ذلك وأيدوه ، وقالوا بأن القول بالصرفة غير صحيح ، لكنهم ذكروا على سبيل التنزل والمجادلة أنه حتى مع القول بالصرفة وعجز الخلق عن معارضة القران بسببها ، فهو أمر من خوارق العادات ، وهو دليل أن القران معجزة صحيحة على صدق نبوة نبينا محمد .

وأخطأ من نسب الى بعضهم أنهم يقولون بالصرفة ، فهم ينكرونها ؛ لكن يقولون حتى لو قلنا بها فهي لاتنفي كون القران من الدلائل الصحيحة على نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم .

وقد قال بهذا عدد من العلماء وفيما يلي بعض النقولات التي تبين ذلك :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية " ومن أضعف الأقوال قول من يقول من أهل الكلام: إنه معجز بصرف الدواعي مع تمام الموجب لها أو بسلب القدرة التامة، أو بسلبهم

---

[١] ) تفسير ابن كثير ١/ ٥٦ ط: دار القلم بيروت ، الطبعة الأولى : ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م. وانظر كلام الرازي في تفسيره التفسير الكبير لفخر الدين الرازي ٢/ ١١٧، ط: دار الكتب العلمية بيروت ، الطبعة الثانية .

[٢] علوم القران وإعجازه ، وتاريخ توثيقه ، ص ٤٧٦

[٣] الإعجاز البلاغي ، د. محمد أبوموسى ، ص ٣٦٧.

[٤] تفسير المنار ١٩٨/١

القدرة المعتادة في مثله سلبا عاما، مثل قوله تعالى لزكريا: { آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا } [1] وهو أن الله صرف قلوب الأمم عن معارضته مع قيام المقتضي التام.

فإن هذا يقال على سبيل التقدير والتنزيل، وهو أنه إذا قدر أن هذا الكلام يقدر الناس على الإتيان بمثله، فامتناعهم جميعهم عن هذه المعارضة، مع قيام الدواعي العظيمة إلى المعارضة، من أبلغ الآيات الخارقة للعادات، بمنزلة من يقول: إني آخذ أموال جميع أهل هذا البلد العظيم، وأضربهم جميعهم، وأجوعهم، وهم قادرون على أن يشكوا إلى الله، أو إلى ولي الأمر، وليس فيهم مع ذلك من يشتكي، فهذا من أبلغ العجائب الخارقة للعادة.

ولو قدر أن واحدا صنف كتابا يقدر أمثاله على تصنيف مثله، أو قال شعرا، يقدر أمثاله أن يقولوا مثله، وتحداهم كلهم، فقال: عارضوني، وإن لم تعارضوني فأنتم كفار، مأواكم النار، ودماؤكم لي حلال، امتنع في العادة أن لا يعارضه أحد. فإذا لم يعارضوه كان هذا من أبلغ العجائب الخارقة للعادة.

والذي جاء بالقرآن قال للخلق كلهم: أنا رسول الله إليكم جميعا، ومن آمن بي دخل الجنة، ومن لم يؤمن بي دخل النار، وقد أبيح لي قتل رجالهم، وسبي ذراريهم، وغنيمة أموالهم، ووجب عليهم كلهم طاعتي، ومن لم يطعني كان من أشقى الخلق، ومن آياتي هذا القرآن، فإنه لا يقدر أحد على أن يأتي بمثله، وأنا أخبركم أن أحدا لا يأتي بمثله.

فيقال: لا يخلو إما أن يكون الناس قادرين على المعارضة أو عاجزين.

فإن كانوا قادرين، ولم يعارضوه، بل صرف الله دواعي قلوبهم، ومنعها أن تريد معارضته مع هذا التحدي العظيم، أو سلبهم القدرة التي كانت فيهم قبل تحديه، فإن سلب القدرة المعتادة أن يقول رجل:

معجزتي أنكم كلكم لا يقدر أحد منكم على الكلام ولا على الأكل والشرب، فإن المنع من المعتاد كإحداث غير المعتاد فهذا من أبلغ الخوارق.

وإن كانوا عاجزين، ثبت أنه خارق للعادة، فثبت كونه خارقا على تقدير النقيضين: النفي والإثبات. فثبت أنه من العجائب الناقضة للعادة في نفس الأمر.

فهذا غاية التنزل، وإلا فالصواب المقطوع به أن الخلق كلهم عاجزون عن معارضته، لا يقدرون على ذلك، ولا يقدر محمد نفسه من تلقاء نفسه على أن يبدل

[1] (مريم: ١٠).

سورة من القرآن، بل يظهر الفرق بين القرآن وبين سائر كلامه لكل من له أدنى تدبر، كما قد أخبر الله تعالى به في قوله: { قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } ".[1]

ومثل ذلك قول ابن كثير السابق رحمه الله ، والرازي ، وغيرهم .

وخلاصة القول أن مما ينبغي على المسلم التسليم له والجزم باعتقاده أن القرآن معجز بذاته ، وأن وجوه الإعجاز فيه كثيرة ومن أبلغها انه معجز بمعانيه وبنظمه وبيانه .

وجميع أدلة بطلان الصرفة التي كرناها في المبحث السابق تدل على أن القرآن معجز بذاته وليس بامر خارج عنه ، وأن الخلق مع توافر هممهم ودواعيهم وماهم عليه من بلاغة وفصاحة ليعجزون عن الإتيان بمثله .

**ثانيا : القول بالصرفة ليس قضية مذهبية :**

مما ينبغي التنبه له أن القول بالصرفة ليس قضية مذهبية، فلم يؤثر عن طائفة بعينها أنها قالت بذلك ، بل الذين قالوا به هم افراد من طوائف مختلفة ، فمن أشهر من قال به النظام من المعتزلة ، والمرتضى من الشيعة ، وأبو اسحاق الاسفراييني من الاشاعرة ، وأكثر من انبرى للرد عليهم هم من تلك الفرق نفسها ، ومن أولهم المعتزلة ، فقد رد على النظام – وهو معتزلي – كل من القاضي عبد الجبار والجاحظ وهو تلميذ النظام والف في ذلك كتابه " نظم القرآن" وغيرهما.[2] وكذلك الحال بالنسبة للشيعة فقد عارض الحاكم الجشمي[3] الصرفة أشد المعارضة.[4]

على أننا لا ننفي أثر اعتقاداتهم على قولهم بالصرفة ، وخاصة المعتزلة ومنهم أكثر القائلين بالصرفة .

قال ابن كثير رحمه الله " وأما من زعم من المتكلمين أن الإعجاز إنما هو من صرف دواعي الكفرة عن معارضته مع إنكار ذلك، أو هو سلب قدرتهم على ذلك،

---

[1] (الإسراء: ٨٨). وانظر: "الجواب الصحيح" (٥/٤٢٩-٤٣١).

[2] انظر مبحث أوجه بطلان الصرفة من هذا البحث.

[3] هو أبو سعد المحسن بن محمد الجشمي ، زيدي وهو من كبار شيوخ المعتزلة في زمنه ،وهو شيخ الزمخشري ت ٤٩٤ ، انظر الأعلام ص ٢٨٩

[4] انظر : الحاكم الجشمي ومنهجه في التفسير ، عدنان زرزور ص ٤٤٦-٤٤٧

فقول باطل، وهو مفرع على اعتقادهم أن القرآن مخلوق، خلقه الله في بعض الأجرام، ولا فرق عندهم بين مخلوق ومخلوق، وقولهم هذا كفر وباطل، وليس مطابقا لما في نفس الأمر، بل القرآن كلام الله غير مخلوق، تكلم به كما شاء تعالى، وتقدس وتنزه عما يقولون علوا كبيرا، فالخلق كلهم عاجزون حقيقة وفي نفس الأمر عن الإتيان بمثله، وتنزه عما يقولون علوا كبيرا، فالخلق كلهم عاجزون حقيقة وفي نفس الأمر عن الإتيان بمثله ولو تعاضدوا وتناصروا على ذلك "[1]

وربما حاول النظام بقوله بالصرفة نصرة القول بخلق القرآن، لأن كونه مخلوقا لا يجعله معجزا بذاته.

يقول الدكتور الشهري:[2]

"ارتبطت نشأة القول بالصرفة بفرقة المعتزلة، والنظام رأس من رؤوسهم، وفرقة المعتزلة لها أثر على النظام الذي قال بالصرفة.

حيث إن المعتزلة لهم أصول خمسة تدور فرقتهم عليها، وهي التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يكون الشخص معتزليا إلا إذا جمعها كلها.

والمعتزلة قائمة على ردود الأفعال، فكل أصل هو ردة فعل على فرقة من الفرق المخالفة.

وكذلك اعتمادهم المطلق على العقل، وتقديمه على النص، ولتقديمهم العقل على النص نتج عنه قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين، ومعناه أن العقل قادر على التحسين والتقبيح قبل ورود الشرع، وبعضهم عزا قول النظام بالصرفة إلى هذا الأصل، فمن وجهة نظره، العقل لا يحيل العرب أن يأتوا بمثل القرآن لولا أن الله صرف هممهم، فجعل النظام ما رآه العقل حكما في هذه المسألة وهو الفصل فيها.

وأمر أخر وهو تعظيم أمر المصلحة، وهي المقصد الذي يدركه العقل بعد التعليل وهي خلاصة معاني الألفاظ، وهذا يؤدي في النهاية إلى اعتبار خلاصة النصوص ومعانيها دون الالتفات إلى نظمها وأسلوبها، والنظام تنكر عن أن يكون الأسلوب والنظم معجزا، ويكون نتيجة القول بالصرفة، أن تثبت الإعجاز للمعنى دون اللفظ .

---

[1] " البداية والنهاية " ٨/٥٤٧

[2] "القول بالصرفة في إعجاز القرآن عرض ونقد" (٤١-٤٤) بتصرف.

## الخاتمـــــــــــة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه، وبعد:

فإني أشكر الله تعالى أن وفقني لإتمام هذا البحث عن قضية القول بالصرفة في القرآن ، وقد خرجت بعدة نتائج، من أهمها:

١. أن القرآن الكريم هو المعجزة العظمى لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد تحدى الله جل وعلا به العرب ومع فصاحتهم وبلاغتهم التي عرفوا بها من بين الأمم عجزوا أن يأتوا بمثله .
٢. أن وجوه إعجاز القران كثيرة ، وذكر بعض العلماء بأنها لا تحصى كثرة .
٣. أن الاجماع بين المسلمين كافة كان على ان القران معجز بذاته ، الى ان ظهر القول بالصرفة في نهاية القرن الثاني الهجري .
٤. الذين يقولون بالصرفة يرون ان القران ليس معجزا في نظمه وذاته ، وانما لان الله صرفهم عن الاتيان بمثله وتعددت أقوالهم في كيفية هذا الصرف ومعناه .
٥. هناك من قال بإعجاز القران في بيانه وبلاغته وبالصرفة في آن واحد ، وبينت أن في هذا القول تناقض .
٦. هناك من قال بالصرفة لأنه رءاها وسيلة نافعة مع أهل الجدل من المخالفين المنكرين لمعجزة القرآن لعدم الدخول معهم في مسألة النظم التي قد تفتح باب اللجاجة والمجادلة ، ولكن في هذا انزال لمرتبة القرآن وعدم تمييز كلام الله عن كلام غيره من البشر بجعل الاعجاز بأمر خارج عنه وليس منه وهذا معنى قبيح في حق القرآن .
٧. من العلماء من أثبت إعجاز القرآن في بلاغته وبيانه وأنكر الصرفة وردها ، لكن قال لو قلنا بها تنزلا ومجادلة لصح الاستدلال بها على الإعجاز وعلى نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لعدم قدرة أحد على معارضة القران رغم التحدي .
٨. أول من اشتهرت عنه الصرفة هو النظام وهو معتزلي وأكثر من قال بالصرفة هم من المعتزلة
٩. القول بالصرفة ليس مذهبا للمعتزلة ولا غيرهم من الطوائف بل قال به أفراد منهم ومن غيرهم ، ورد كثير من علماء المعتزلة على القول بالصرفة ردا بليغا .
١٠. جمعت العديد من أقوال العلماء المتفرقة في بيان وجوه بطلان القول بالصرفة ووصلت الى قرابة خمسة عشر وجها وقد تزيد .

## المصادر والمراجع


- القرآن الكريم.
- الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي ، الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، طبعة ١٣٩٤ه
- أصول الدين لعبد القاهر البغدادي. ط دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة. ١٤٠١هـ.
- الإعجاز البلاغي للدكتور محمد محمد أبو موسى. ط مكتبة وهبة. الطبعة الأولى. ١٤٠٥هـ.
- إعجاز القرآن للباقلاني. دار المعارف بمصر ، الطبعة الخامسة ١٩٩٧م
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي. ط دار الكتاب العربي. ١٤٠٤هـ.
- الأعلام لخير الدين الزركلي. الطبعة الثالثة. ١٣٨٩هـ.
- البداية والنهاية ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (المتوفى: ٧٧٤هـ) ، الناشر: دار الفكر ، عام النشر: ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م
- البرهان في علوم القرآن للزركشي. ط دار المعرفة. توزيع دار الباز بمكة. الطبعة الثانية.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي. ط عيسى البابي وشركاه. الطبعة الأولى. ١٣٨٤هـ.
- بيان إعجاز القرآن للخطابي. مطبوع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. ط دار المعارف. ١٩٩١م.
- تاريخ بغداد الخطيب البغدادي ، طبعة١ دار الكتب العلمية ن بيروت ١٤١٧
- تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة للبيروني. ط الهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر. مصورة عن طبعة دائرة المعارف العثمانية بالدكن بالهند عام ١٣٧٧هـ.
- تفسير الراغب الأصفهاني ، أبو القاسم الحسين بن محمد (المتوفى: ٥٠٢هـ) ، تحقيق ودراسة: د. محمد عبد العزيز بسيوني ، الناشر: كلية الآداب - جامعة طنطا ، الطبعة الأولى: ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير. ط دار الدعوة باسطانبول.
- التفسير الكبير لفخر الدين الرازي. ط دار إحياء التراث العربي ببيروت. الطبعة الثالثة.
- الجامع الصحيح المسند للبخاري. ط السلفية. الطبعة الأولى. ١٤٠٠هـ.

- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي. ط دار القلم. الطبعة الثالثة. ١٣٦٨هـ.
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية. ط مطابع المجد.
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر. ط دار الكتب الحديثة مطبعة المدني. مصر.
- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني. ط مطبعة المدني.
- الرسالة الشافية للجرجاني. ط مطبوع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. ط دار المعارف. ١٩٩١م.
- رسائل الجاحظ ، عمرو بن بحر أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ) ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون ، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة ، عام النشر: ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م
- سير أعلام النبلاء للذهبي. ط مؤسسة الرسالة. الطبعة الأولى. ١٤٠١هـ.
- شرح المقاصد للتفازاني. طبعة قديمة بمكتبة الحرم المكي الشريف.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي. ط المكتب التجاري للطباعة ببيروت.
- شرح المواقف للجرجاني. ط السعادة. الطبعة الأولى. ١٣٢٥هـ.
- الصحاح للجوهري ، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار الناشر: دار العلم للملايين - بيروت الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .
- صحيح مسلم بشرح النووي. ط دار الريان للتراث. الطبعة الأولى. ١٤٠٧هـ.
- طبقات المفسرين العشرين ، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ) ، المحقق: علي محمد عمر ، الناشر: مكتبة وهبة - القاهرة ، الطبعة: الأولى، ١٣٩٦
- كتاب العين ، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (المتوفى: ١٧٠هـ) ، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي ، الناشر: دار ومكتبة الهلال
- الفرق بين الفرق للبغدادي. ط دار المعرفة توزيع دار الباز.
- الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم. ط دار الجيل.
- فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل.
- الفوائد المشوق لابن القيم. ط دار الكتب العلمية.
- فوات الوفيات والذيل عليها لمحمد بن شاكر. ط دار صادر.
- القاموس المحيط للفيروز آبادي. ط مؤسسة الرسالة.

- قضية الإعجاز البلاغي وأثرها في تدوين البلاغة العربية لعبد العزيز عرفة. ط عالم الكتب. الطبعة الأولى. ١٤٠٥هـ.
- القول بالصرفة في إعجاز القرآن عرض ونقد لعبد الرحمن الشهري. ط دار ابن الجوزي. الطبعة الأولى. ١٤٣٢هـ.
- لسان العرب لابن منظور. ط المطبعة الأميرية.
- المستدرك على الصحيحين للحاكم. ط دار الفكر بيروت. ١٣٩٨هـ.
- المعجزة الخالدة لحسن ضياء العتر. ط مؤسسة فؤاد بعينو. الطبعة الثالثة. ١٤٠٩هـ.
- المعجزة الكبرى القرآن ، محمد بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: ١٣٩٤هـ) ، ط دار الفكر العربي.
- معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (القسم الأول). ط دار الفكر.
- المغني في أبواب التوحيد والعدل. ط الشركة العربية للطباعة والنشر. القاهرة. ١٣٨٠هـ.
- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (المتوفى: ٣٢٤هـ) ، المحقق: نعيم زرزور ، الناشر: المكتبة العصرية ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م
- الملل والنحل للشهرستاني. ط دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى. ١٤١٠هـ.
- المواقف في علم الكلام للإيجي. ط مطبعة العلوم.
- الموضح عن جهة إعجاز القرآن الصرفة للشريف المرتضى. ط١ مجمع البحوث الإسلامية ، مشهد ، ايران ١٤٢٤هـ.
- النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز. ط دار القلم. الطبعة الثالثة. ١٩٨٨م.
- نظرية الصرفة حقيقتها القائلون بها الرد عليها لفتحي بودفلة.
- النكت في إعجاز القرآن للرماني. ط مطبوع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. ط دار المعارف. ١٩٩١م.
- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي. ط مطبعة الآداب والمؤيد. ١٣١٧هـ.
- الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي.